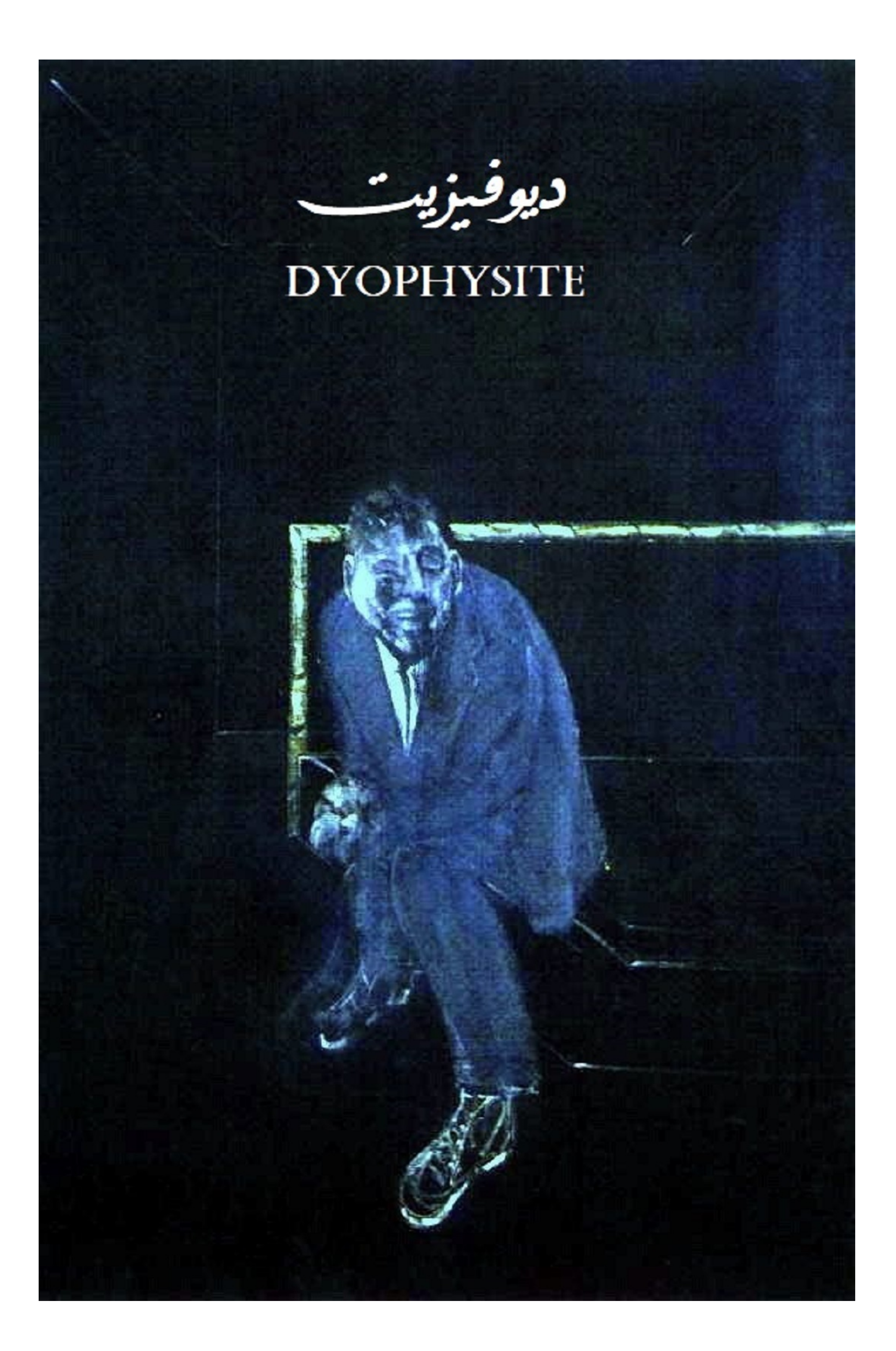


دیوفیزیت
DYOPHYSITE

الفهرس

(الفصل الأول)

أحس بتواتر لهاثه يخفض لفترةٍ وجيزة عندما توقف لأخذ قسطاً من الراحة قبل أن يعاود التصاعد مجدداً عندما أخذ يستكمل ركضه في ما بين المنعطفات و الأزقة، و لكنه أخذ يساءل نفسه حال ذلك الشأن في ما كون هذا الشعور؟، و ما هذا الذي يسري في أدومه و الذي يجري في عروقه و على جلد بشرته و ما تحتها، أكل هذا يصدر منه فقط؟، أكل هذه الإفرازات الكيميائية هي من إطلاق دماغه حقاً؟، و لماذا؟، فقط لقيامه بما قد فعله منذ دقائق معدودة؟.

نظر لمعطفه المنتفخ قليلاً عند منطقة الصدر، و فتحه قليلاً بعد أن أطمئن لكونه قد تخلص من مطارديه، و هذا إن كان هنالك أي مطاردين من الأساس؛ فهو لم يلتفت للوراء للحظة واحدة لتقصي حقيقة ذلك، فأخرج كيساً بني ورقه خشن، أخذ يتلمسه فبدا له بأن نصفه فقط يحتوي على شيئاً ما، فأخذ يفتحه في خفاءٍ و بحذر و يتفقده بأحدى عينيه ليرى ما بداخله، لكن ما هذا؟، فتح الكيس بأكمله و مد يده للداخل مخرجاً قطعةً من الخبز، ما هذا!؟!، هل حقاً هذا ما خاطر بحريته من أجله؟!، أهذا سبب كل ذلك الشعور، أيمكن لقطعة خبز أن تكون السبب لكل هذه النشوة، قطعة خبز يأكلها أي إمرءٍ على طاولة فطوره و في كل يوم بلا مبالاة أو إعارة أي إهتمام لمن وضعها على صحنه و بكم قد كلفته من نقد، فأخذ يفكر "إن كان الأمر كذلك، فما الفرق بالنسبة لي بين قطعة الخبز هذه، و قطعة ألماس مصقولة؟."

خرج سيرغي من الزقاق الرطب ذو الرائحة النتنة، يديه في جيب معطفه الطويل و السميك، يخطو خطوات متمللة و منكدرة، ظهره محدودب، شعره أشعث وأطول من الحد المناسب الذي يجب أن يكون عليه ليحتفظ بهيئةٍ متماسكة، عيناه ذابلتان لا تستطيع رؤية أي إنعكاس على صفيحتهما، وجنتاه حادتان و شاحبتان لا يبدو إن الدم يسري خلاليهما، وقف سيرغي فجأة و أخذ يفرك عيناه و كأنه عامل قد قضى طوال يومه يكدح في عمله و ها هو يرى فراش النوم بعد لغب يومٍ طويل، تثائب سيرغي، و أخذ يلقي نظرات حائرة على محيطه الذي بدا مبتل و رطب في كل ملامحه، شوارع تكاد تغرق في مياه المجاري

الفائضة، أرصفة موتشحة برذاذات المياة من جراء عبور السيارات على الشوارع التي سبق أن وصفنا حالتها، أبنية من ذوات ثلاث أدورة قد تزاحمت في ما بينها و جعلت من المجمع يبدو و كأنه على وشك الإنكماش على نفسه.

صعد سيرغي المبنى العتيق و المتهالك ذو الطوابق السبعة و الذي يبعد عدة مجمعات عن الزقاق الذي خرج منه سابقاً، و أخذ يعتلي درجات السلالم و صدى وقع حذاءه يصدح في أرجاء المبنى، خالي تماماً، فما زالت الساعة لم تتجاوز السادسة صباحاً بعد، وقف سيرغي يتأمل أحد أبواب الشقق الذي بدا بإنه قد ترك مفتوحاً لسبب ما، فتقدم ناحيته في فضوله المعتاد ليطلع في أرجاء الشقة، و من يدري؟، يمكن أن تتطاول يداه إحدى الحاجات الثمينة التي قد يعثر عليها ملقية بإهمال عند مدخل الشقة، لكن لأسفه الواقع لا يجاري الرغبات، فلم يكن متواجداً في الشقة سوى الأثاث الرخيص و المشقق الذي لا تستطيع أن تجني منه حتى بضعة دراهم، ظهرت الأنسة فيليبونا فجأة أمام وجهه و كأنها حرباء قد كانت متخفية و ها قد أستعادت ألوانها، فنظرت إليه بإستغراب، و بعيونها الجاحظة، و المحملقة، و المسائلة، تأمره بتوضيح ما يريده بوقوفه المشبوه به هذا عند عتبة باب شقتها.

حك سيرغي رقبته و هو يتمتم ببعض عبارات الإعتذار التي لا تغني عن و لا تسمن من جوع، فهي بالكاد تُسْمع أو تُفْهم سوى بإنها مجرد أصوات تنطق لتملئ الفراغ و تدفع الموقف المصطبغ بالإحراج و الخجل جانباً، و أكمل طريقه للأعلى إلى شقته الصغيرة و القابعة في الطابق السادس، فتح الباب بمقدارٍ ضيق لينسدل للداخل فهو يخاف و يتوجس حتى من دخول أي نسمة من نسمات الهواء الغريبة من الخارج، وجد الشقة المكونة من غرفة واحدة كما تركها عند غبشات الضحى عندما خرج منها، ألقى كيس الورق الخاوي على أرضية الغرفة بعد أن أفرغ محتواه الضئيل من الخبز في فمه أثناء طريقه للعودة، و أخذ يجوب أرجاء الغرفة محتاراً و قلقاناً و كأنه يتوقع هجوم أعضاء من الشرطة عليه في أي لحظة لمجرد أنه سرق كيساً من الخبز.!

دوت طرقات على الباب ثم تبعها صرير فتح الباب و غلقه، و تلتها خطوات وقع حذاء يتقدم نحو سيرغي الذي كان يغط نائماً على فراشه البالي الذي أكتسى لونه باللون البني المتسخ، فتح سيرغي عيناه على مهل ليلاقي أمامه ليس سوى جانيا، رفيقه، فتحرر جانيا من قيد الوقوف في قبال فراش سيرغي بعد أن تأكد من أنه قد أوتعى و أستيقظ و علم بوجوده، و أخذ يتجول في أنحاء الغرفة و هو يضرب بقفازه الأيمن الذي خلعه على راحة يده اليسرى، و أخذ يقول في عتاب مشوب بالرثي:

"هل عيناي تخونانى، أم أن هذه الغرفة تصبح أكثر قذارة و وساخة في كل مرة أراها، أنظر."!

تقدم جانيا إلى زاوية من الغرفة و أنحنى ملتقطاً شيئاً بأطراف أصابعه، و مد طول ذراعه بعيداً عن بدنه ليلوح بالشيئ تجاه سيرغي و علامات التقزز بادية على وجهه.

"بالله عليك!؟، أهذه معيشة؟، أهذا مكان يجيز بشرٍ لنفسه بأن يعيش في أرجاءه، و ينام فيه؟، أتتخذ مكب النفايات هذا مقراً لإقامتك؟، ألا تعلم بإن المكان يعكس الشخص و يدل على ماهيته؟، هل تعتقد أمثال خيروفيتش ألا و هو قدوتك و مثلك الأعلى يعيشون في أماكن بهذه الحالة؟، فلماذا لا تستدعي منظفة لتقوم بتنظيفها في كل فترة من الزمن؟، و لو على الأقل مرة كل أسبوعين، و لن يكلفك ذلك كثيراً، ففي الواقع بإستطاعتي أن أدلك على واحدة تقوم بعمل جيد مقابل أجرٍ زهيد، فما رأيك؟."

جلس سيرغي على فراشه و أخذ يفرك عينيه بقسوة، و كأن النوم ليس سوى طلاء سميك قد أنسكب على عينيه بغير دراية منه و ها هو يكشطه بأظافره، و تثائب في غير عجلة هاملاً عتاب جانيا له، فهو قد سمع كل هذا الحديث مرات عدة، فما هذا سوى نمط معتاد في الحديث لكلا الأثنين، فهذا هو إعلان و تذكير من جانيا إلى سيرغي على تفوقه عليه و على إقتداره و تمكنه من الحياة و مقتدراتها الإجتماعية على عكسه هو.

"و لماذا أستعين بمنظفة؟، أليست لدي يدان و رجلان أستطيع بهما القيام بكل ما قد تستطيع أن تقوم به المنظفة؟، و ما هي الحكمة بتعيين شخص آخر للقيام بأعمالك الخاصة بدلاً

عنك؟، ألست أنت القائل منذ قليل "المكان يعكس الشخصية"؟، لكن شخصية من بالتحديد نتحدث عنها نحن هنا؟، أصاحب المكان، أم المنظفة؟،فهل النظافة الشخصية شيئ يعين ليقوم به شخصاً آخر؟، إذا كان الأمر كذلك فما الفائدة من وصفها بنظافة 'شخصية' إذاً؟، فكر في هذا قليلاً بينما أقوم بغسل وجهي و تبديل ملابسي."

قام سيرغي من على فراشه و توجه نحو الحمام الضيق الذي لا يحتوي إلا على مساحة بالكاد تكون كافية لمرحاض متسخ، و مغسلة قصيرة عتبها تصل إلى أعلى الفخذ، تعلوها بمساحة شاسعة و مقابلة لرأس سيرغي مرآة ملطخة بدمغات من الوسخ و مكسورة عند أحد جوانبها.

سمع سير المياه و هي تجري في أنابيب التصريف النحاسية، في إنشودة نشازية تعزف من قبل جوقة أبواق يحتضر اعضاءها من طعم النحاس الصدئ على شفاههم، و صوت تمخط سيرغي و بصاقه يعلوها صدحاً كعزف منفرد مصاحب، قاطع جانيا هذا الأستعراض الموسيقي الطليعي مجيباً على أسئلة سيرغي التي بدت إفتراضية في توجهها:

"أتعلم؟، منذ يومين قابلت على الطريق العام قرب ساحة غيرسكي متسولٍ أدرد، و اللحم قد أنعدم من على بدنه، و لكوني كنت مرتدياً هنداماً جيد و يوحي بإعتدال معيشتي، قام بالتوجه نحوي طالباً بعض العملات النقدية، و أخذ يحاول أن يقنعني في لما يجب أن أفعل ذلك حتى قبل أن أعترض على طلبه أو أن أرفضه، و قال بإنه بإستطاعته أن يلمع حذائي مقابل تلك العملات، و بهذه الطريقة لن يكون هذا تسولاً، و إنما عمل، و لأخبرك الحقيقة فإن حذائي لم يكن بحاجة للتنظيف في ذلك الوقت، لكن تنازلي و سماحي له بتنظيفه هي خدمة بسيطة بالنسبة لي لكنها تجلب خيراً وافراً له!، و هذه الخدمة بالأخير ستعود بالمصلحة للمجتمع كله، و هذا هو الحق المنشود!، فالخير له هو خير لي أنا و إن لم أستمتع بحضوات هذه المنفعة مباشرة أو حتى بالبتة، و لأجيب على سؤالك، فكلا، تعيين شخص آخر ليقوم بعملك نيابة عنك لا يعتبر خداع للنفس، فالمنظفة لن يخطر على بالها أن تدخل غرفتك و أن تنظفها إلا إذا سمحت أنت لها بذلك، و هذا هو الإقرار و التوكيد على ما قد قلته أنا

مسبقاً بإن المكان هو إنعكاس للشخص، فأنت لا تنظف بنفسك و لا تسمح لغيرك بفعل ذلك نيابة عنك لأنك ببساطة لا ترى ذلك إنعكاساً لنفسك، و لكن الحالة القائمة التي الغرفة عليها الآن هو ما تتعرف عليه في دواخلك كمرادف لطبيعتك، نعم!، ذلك هو الحق و الحقيقة."

كم سيرغي أزرار قميصه المصنوع من الكتّان ذو اللون الأزرق الداكن الذي يميل للسواد، و ألتقط معطفه الطويل لابساً أياه بمهارة معتادة، و أخذ يتخذ سبيله تجاه الباب دون أن يلقي أي كلمة، فاتحاً الباب و متجهاً للخارج، لحقه جانيا تابعاً أياه حيث إنهما كانا متجهين إلى أسفل السلالم التي أتشحت جدرانها بالسواد في ما عدا عند مصطبات السلالم حيث كان هنالك الضوء الواهن الصادر من المصابيح الكهربائية في الممرات تقوم بعملها بأقل ناتج .

حاذا جانيا سيرغي و تزامن وقع خطواتهم مصدرين صوت مشي شخص واحد، حيث بدا المجمع خالياً و مقفراً في ما عدا صوت نباح بعض الكلاب الضالة التي تتجرئ احياناً و تغزو أرجاء المجمع، رفع جانيا رأسه إلى هامة السماء الطامسة بالظلام في ما عدا بعض الإلتماعات على مفترق أرجاءها و كأنها صفيحة ماء ترتجف في قاع بئر، فيما كان سيرغي بطبعه المتوتر و المتوجس لا ينوء عن الإلتفات إلى الخلف، و إلى اليمين، و الشمال، و إلى المنحنيات و المنعطفات في ما بين المباني مع كل بضع خطوات كانوا يخطونها، ألتفت سيرغي تجاه جانيا الذي لا زال يحملق في السماء، و تجلت على وجهه علامات الحنق على هذه الطمأنينة و الإسترخاء اللذان لا يبدوا بأنهم قد يفارقون جانيا في أي يوم من الأيام، مما دعاه لإكمال حديثهم السابق بإصرار:

"بدافع الخير!، أليس هذا ما قلته عندما كنا في الأعلى؟، بدافع الخير دفعت لخدمة لم تكن بحاجة إليها، أليس هذا ما قد قلته؟."

أستدار وجه جانيا تجاه وجه سيرغي في لمحة إستغراب من إصراره على إكمال سبر هذه المحادثة، فهو عادة ينقطع عن المجادلة في هذا الموضوع في اللحظة التي يجلب جانيا فيها

ذكرى أحد أفعاله التي يقوم بها كما يصفها هو بدافع الخير كدليل مؤيد لوجهة النظر التي يتبناها فيما يتناقشان و يتجادلان فيه، فهذه هي الورقة الرابحة التي تنهي أي لعبة مهما تبقت من أوراق في يدي اللاعبين، فمن في رجاحة عقله قد يتجرئ على مناظرة شخص يتبنى الخير و الفضيلة كمنبع لأفعاله و سلوكه؟.

"نعم، لقد قلت ذلك، أفليس من الخير أن تتخلى عن قليل مما تملك إن كان من ستعطيه أياه معوزاً محتاجاً؟، أستحاجج ذلك؟."

أنزل سيرغي رأسه و أخذ ينظر إلى وقع أقدامه التي بدأت بالتخلي عن إنسياقها مع خطوات جانيا، و أخذ صوت وقع الأحذية يتضاعف في عراك و تنافر، حدق سيرغي في إحدى نوافذ المباني التي كانت على بعد عشرات من الأمتار أمامهم عند المنعطف، و لعق شفتيه الجافتين و المتشققتين كأنه إحدى الحيوانات التي تلعق صفيحة الماء لكي تتأكد من قوامة طعمه قبل إزدراد كل ما تستطيع بطونها أن تحمله، و قال بعد تبطن هادئ لم يدم سوى بضع ثواني:

"الخير؟، و ما الخير بداعي الشفقة؟، فعندما أصادف إحدى أولاءك الأمهات العوانس الاتي يتسولن على جسر فيليكو برفقة أولادهن الذين يجلبونهن معهن بغرض إستجلاب مزيد من الحنية تجاههن، فأنا أيضاً كمثل بقية الناس تعتريني الشفقة تجاههن، فما يمرون به هو صعب و مجهد لا جدال في ذلك، لكن السبب الوحيد الذي قد يدعيني لإعتطاف أي خير تجاههن إلا هو أن يكون سوى إني أحتقر المكان الذي هن فيه، و عدم رغبتي في الخضوع لما يخضعن هن إليه، فما النقود التي سأعطيهن أياها سوى عربون أدفعه لأبعد هذا المنظر البشع و المقرف من أمام عيني، فأنا أريدهن أن يتخلصوا من فقرهن المدقع و من جوعهن المقرع للبطون لكي لا يصلني أي أثر قد ينتج من تبعات حالتهن المعيشية، فهاكن!، خذوا هذه النقود و أغربوا عن وجهي و لا تروني وضعكن البائس هذا، ألست محقاً، أليس هذا ما قمت به أنت أيضاً مع المتسول ملمع الأحذية، رميت بضع عملات في وجهه كعربون

لآلهه المجتمع و مقيّميه مأتملاً أن تحل هذه العملات البخسة مشاكله و يمتنع عن التسول مرة أخرى، أليس هذا صحيحاً؟."

كاتف جانيا ذراعيه، و أمتعض وجهه في نفور من كلمات سيرغي التي كانت طاعنة و متهجمة أكثر من أن تكون مجرد مسائلة، و تنهد في كمود و في حيرة من أي ناحية يهاجم هذه القضية التي طرحها عليه، فما كان من سيرغي ألا أن يزيد البنزين على النار في خضم حيرته هذه:

"و الأهم من هذا كله، و بل قل الإستنتاج الأعظم و الجواب الحاسم و المبين لأسئلتك الأولى التي طرحتها بكل تعنت و أسترفاع عندما كنا في الشقة، المنظفة التي وعدتني بقدرتك على وصلي و تعريفي بها لتنظيف غرفتي، ألم تعرض علي ذلك سوى لكي تعفي عيناك 'النقيتان' من منظري الرث و البائس و من منظر غرفتي القذرة و المتسخة؟، و ألم تعرض علي ذلك سوى لتعفي ذهنك عن التفكر في إمكانية أن يصل حالك إلى هذا الوضع في يوم من الأيام، فكأنك بهذا تقول لي "هاي يا سيرغي!، لما لا تنظم أمورك قليلاً، فقط لكي أستريح و أتطيب من رؤية منظرك البشع هذا، و تعفيني من إنهمامك البائس هذا"، هئ هئ، يا للمفارقة!، عمل خير قال!، إذا كان هذا هو الخير بالنسبة لك، فسحقاً للخير، و سحقاً لتنظيم أموري، فأنا لست مرآة ترى فيها شذرات من نفسك، فقط لتقوم بتذويب سطحها و تعيد تقويمه حتى يلائمك في إنعكاسك و هيئتك بكل تفاصيلها."

تصاعدت أنفاس سيرغي بإنفعاله هذا في غمر إندفاعه في الدفاع عن وجهة نظره التي لم يسمع كلماتها تنطق بهذا الوضوح و الصراحة و لا بهذا الصوت الجهور من قبل، و أحمرت وجنتاه الغائرتان، و تناثرت خصلات شعره في شتى الأرجاء، فهذه إحدى المرات القلائل التي يرى فيها أنه قد سد الطريق في وجه جانيا و كلماته المتحذلقة و الصلفة، و أخذ يحدق في وجه جانيا مترقباً ردة فعل أو إنفعال بمثل الحدة منه، و هذا هو ما كان يريد أن يحدث، هذا التصادم، و الذي كان يترقبه منذ فترة طويلة، لكي يحدث التفاعل الذي يغير مجرى الأمور للأبد، لا يهم إن يكون للجيد أم للأسوء، لكن يبدو إن الإنتظار سيدوم طويلاً،

كسيجارة على طرف شفاه، تنتظر الإشعال، تلامس طرفها قداحة على وشك إحراق وقودها و تبديد نارها فقط لتجد عند طرقعتها إن وقودها قد نفذ!، حيث أعتلت إبتسامة ساخرة على طرفي فم جانيا، فبدا كطفل متشيطن على وشك العبث بمخبئات والدته السرية، و فاجئ سيرغي بوضع يده على كتفه و ضمه تجاهه في لمحة تنم على الصداقة، فكأنهم قد تبادلوا للتو نكت طريفة قد روحت عن أنفسهم، فيا للمفارقة بين مختزنات هذين الأثنين.!

دخل جانيا حانة غورفنيتش و تبعه سيرغي، و بدت أرجاء الحانة مملوءة بالزبائن إلى الحد الذي يتحول فيه الغوغاء إلى هدوء حيث تنسجم الأصوات الكثيرة و الحركات التي لا تنتهي في لوحة سائبة و منسجمة و في حركات متناغمة لا تستطيع فيها تبين ذراع من هذه المرفوعة و التي تطلب المزيد من الجعة أو صلعة من هذه التي تلمع تحت الأضواء المتدلية من السقف العالي، أو صوت من هذا الذي يلعلع بأغاني البحارة التي عفا عليها الدهر، و في هذا المكان لا رائحة تطغي على رائحة الكحول المارقة.

جلس كلٍ من جانيا و سيرغي على إحدى طرفي طاولة صغيرة قد وضعت جانباً في إحدى الزوايا البعيدة عن منضدة الإستقبال، و رفع جانيا إصبعين تجاه النادل المتيقض دائماً و الذي يدور برأسه في كل الإتجاهات كأبن عرس ليميز الأصابع الطالبة عن الأصابع التي تعلو في طيش و حماقة السكر، فيما كان سيرغي كعادته منعكف على نفسه معاضداً ذراعيه، و حانياً ظهره للأمام، يحملق في الجموع و يتتبع الجو العام بعيون جاحظة و محمرة تكاد تسقط من محاجرها، كان جانيا يحدق بتعابير جامدة عندما أرجع سيرغي رأسه قبالته، و بدا له و كأنه في ترقب للحوز على بعض من تركيزه، فطأطأ سيرغي برأسه تجاه جانيا آمراً أياه بالخوض في الحديث الذي يريد.

"أما زلت تكتب تلك الرواية؟."

أمتعق وجه سيرغي و أخذ يلعب بلسانه في جانب فمه، محتاراً فيما قد يبدأ بقوله.

"لم أعد أكتب منها بالقدر الذي أريده، على الأقل ليس بالكمية التي أطمح لها كما كنت معتاداً أن أفعل سابقاً، إذا كان هذا ما قد قصدته، أعتقد أني قد كتبت حوالي ثلاثين

صفحة فقط خلال الأشهر الخمسة الماضية، و كلها ستذهب هباء، لكوني غير مقتنع بجودة الكتابة فيها، فأنا بالتأكيد سأعيد كتابة تلك الصفحات حتى أقتنع بها."

أدار سيرغي رأسه مرة أخرى يتطلع في وجوه السكارى المتورمة و المحمرة، و أخذت فكرةٍ ما تحوم في ذهنه و تتكون على هذا المنظر، خصوصاً بعد عدم تلقيه أي رد من جانيا أو حتى المحاولة بأبخس ما يستطيع للرد على ما قاله للتو.

"لكن ما الهدف من هذا النوع من الكتابة؟، أليس هذا ما تريد أن تعرضه و تقترحه علي بسؤالك عن أحوال روايتي؟، و أنه يجب علي أن ألتزم بكتابة تلك المقالات الرخيصة و المنحطة فكرياً فقط لأكسب لقمة العيش و الأكتفاء بذلك كغاية لا وسيلة."

نفث سيرغي نفساً عميق و أخذ يمسد رأسه براحة يده في حيرة و ضجر من هذا الكلام الغث الذي لا ينتهي من الدوران و التشعب في زرانيق ذهنه، و في هذه اللحظة ظهر النادل أمام الطاولة واضعاً كأسين من الجعة التي بدت غير مشهية لسيرغي و لا تشجع على شربها، فوضعها جانباً، بينما قام جانيا بتناول القليل من كأسه، قبل أن يلحقها هو الآخر جانباً حذاء جعة سيرغي.

"لن أقول لك كف عن الكتابة، فهذا سيكون كلاماً لا طائل و لا غاية منه، فأنت بالتأكيد لن تستطيع فعل ذلك، لكني سأقول لك أنك لو ركزت أكثر في كتاباتك الصحفية و مقالاتك فذلك سيكون أفضل لك، فأنت تملك القدرة على الإرتقاء في سلم المراتب، و الحصول على صيت واسع و شهرة بين القراء، و الضفر بحيز أكبر في الصحف لو أردت و خططت لذلك، و بالتأكيد تبعات ذلك من محضيات و خيرات ستكون كثيرة، فأنا لا أعلم لم لا تستحضر قليلاً من الشجاعة و تخطو هذه الخطوة، فأنت تملك المهارة بكل تأكيد، و تملك الوقت، في حال لو قمت بتنحية بعض الأعمال الغير ضرورية جانباً، و أنت بالتأكيد لن تخسر شيئاً لو خصصت سنة كاملة في الحذو بهذا الإتجاه، فلماذا لا تزال تصر على معاندتي و مجافاتي في هذا الموضوع؟ ."

تنهد سيرغي، و أخذ يمسد شعره مزيداً، و يشده في صراع داخلي، أمسك كأس الجعة في حركة خاطفة و أزدردها جرعة واحدة، و أخذ يمسح فمه بظاهر يده و عيناه تجولان في أرجاء الحانة التي لم تنضب من الحركة و الضوضاء للحظة واحدة، في أثناء ذلك حذا جانيا حذو سيرغي و شرب كأسه، لكن على مهل و رواء.

القمر مهيمن بحضوره المشع في السماء السوداء، و النجوم من حوله متناثرة كحبات ألماس قد صففت على قطعة مخملية سوداء، و نباح الكلاب الضالة تصدح في الأرجاء و تبدد الهدوء السرمدي الطاغي، فمتى يكون هذا الصوت الشاذ مقبولاً و مرحباً به إلا في هذه الأوقات الموحشة، فالوحشي يرحب بالوحشية و ينفر من الحضروية، أخرج سيرغي علبة سجائر من معطفه، و ألصق سيجارة على شفته السفلى التي أمسكتها بخمول و بهشاشة، و أخرج قداحة من جيب بنطاله، و حال أشعالها دون نتيجة، حيث بدا إن مخزون وقودها قد نفذ، فلم تخرج سوى شرارات متناثرة لا تكفي لإشعال أي شئ أو حتى الإحساس بحرارتها، فها هو طرف السيجارة المهيئ للإشعال السريع، و ها هي القداحة المصنعة خصيصاً للإشعال، تتلامسان و تحتكان، لكن لا نتيجة، فأي إستعارة قد تكون أمثل من ذلك لتمثل الحياة بالنسبة لسيرغي لسنوات قد إنقضت و أخرةٍ آتية، أعاد سيرغي السيجارة إلى علبتها التي ضغطت أصابعه عليها حتى تكرفست الكارتونة، و أخذت أسنانه تصر على بعضها في حنق، و رأسه يجول بالأرجاء، و عيناه تشخطان بالمباني المحيطة به من كل جهة، فبدت كالجبال الرفيعة تحت وشاح الظلام، و الرصيف الذي وقف عليه كالوادي الضيق الذي يحبس الأنفاس و يخنقها، و عينا سيرغي لا تزالان تشخطان في هامات المباني التي بدأت بالإنغلاق تدريجياً تجاه بعضها البعض، لتسد الفوهه التي كان يطل القمر منها و تحجب نوره المشع نهائياً عن عيني سيرغي.

(الفصل الثاني)

وجه يملئه البغض و الصرامة، ذو حنك واسع و بارز الزوايا، يعتلي شفته العليا شارب سميك و شديد السواد، تماثله في ذلك حواجب لا تكل عن التقطيب، وضع يدٍ غليظة و متينة المفاصل على الطاولة، و أخذ يحدق في وجه سيرغي الذي بدا كعادته في مظهره الرث و الشاحب، و معطفه الطويل ملقى جانباً على الأرضية، و قميصه الأزرق الداكن مدلوع الجيب و مكرفس الثنيات، و شعره كما هو لم يتغير في تسريحته الغير مبالية، و نظراته ساهمة لا تدري أين هدفها، أقترب وجه صاحب الشارب السميك من وجه سيرغي، و خاطبه بصوت رخيم و بكل بطئ لكي يستطيع أن يفهمه و يستوعبه.

"بني، للمرة المائة أسألك، ماذا كنت تفعل في الخارج و في ذاك الوقت المتأخر من الليل؟، هم؟، . . .، لمذا لا تجيب عن أسئلتي؟".

جمع سيرغي يديه و مددهما على سطح الطاولة، و أنكس رأسه للأسفل، في لمحة تشابه شعائر التوسل و التضرع لكنها تخالف المضمون و تعاكسه، فالغضب كان بائناً على وجهه في كل مرة يلقى عليه هذا السؤال، أخذ الضابط يلعب بأطراف شاربه و يقوسه بحركات متكررة من أصابع يده، و أعاد على مسامعه هذه الجمل التي سمعها سيرغي منه مراراً و تكراراً حتى مللها.

"يجب أن تعلم إننا لا نستطيع إن نخلي سبيلك دون أن نعرف سبب تواجدك في تلك المنطقة و في ذلك الوقت إلا بتوفيرك لنا سبب مقنع لذلك، . . . ، هل كنت ربما في طريقك لزيارة صديقتك مثلاً؟، هم؟، أو حتى ربما صديقك؟، فإذا كان الأمر كذلك فلا داعي للقلق فالمعلومات التي توفرها لنا لن تغادر عهدتنا أبداً، فخصوصية المواطنين مضمونة في حوزتنا!".

أرتعش بدن سيرغي لتلك الجملة الأخيرة، و أرتجفت يديه تحت الضغط الهائل للحنق المكبوت الذي كان يسري فيهما، و أدار رأسه جانباً تجاه الطاولات الأخر الاتي يشغلهن ضباط أخر يقومون بأعمالهم الورقية غير مبدين أدنى إهتمام للإستجواب الذي يحدث

أمامهم، حتى لمحه إحداهم عندما قام من على مقعده و كان في طريقة لإيصال ما أنهاه من أعمال للمشرف و الضابط الأعلى للسلك، فتقدم ناحية الطاولة التي يجلس عليها سيرغي، و خاطب ذو الشارب السميك.

"لا تقلق يا أندريه، دعني أتولى هذا الأمر، فكل ما أريده منك بالمقابل هو أن تقوم بتوصيل هذه المعاملات إلى الضابط الأعلى سيمينوف، و أن تخبره بإن كل شيئ تام و كامل في حال إن سألك عن أي موضوع يتعلق بالمعاملة، أتفقنا؟".

وقف أندريه متردداً، حتى أقتنع أخيراً بهذه الصفقة التي بدت رابحة في وجهة نظره و أستلم الأوراق من يده و توجه مباشرة تجاه الغرفة الأخرى، بينما كان الضابط المجهول ما زال ملازماً مكانه حيث وقف يطلع لقامة أندريه الراحل لحد أختفائه في الغرفة المجاورة، ثم أستدار تجاه سيرغي و ألقى عليه نظرة نافذة تسبر الدواخل و تطلع عليها، رجل في منتصف الثلاثينات من عمره، نحيل في بدنه لكن دون أن يجعله ذلك يبدو ضعيفاً، ذا وجه طويل و فاقع البياض لكن دون أن يتخطى ذلك لحد الشحوب، و شعره كستنائي مسرح على جنب، هندامه مرتب و مكوي، يوحي بأهتمامه بمظهره و كيف يراه العامة من الناس، جلس جنب سيرغي من على الجهة المجاورة لطاولة 'الإستجواب'، أقول إنها طاولة إستجواب لكنها في الحقيقة ليست سوى مجرد طاولة واسعة العرض و قليلة الطول موضوعة على الجانب الآخر من ردهة المكاتب المخصصة لزوار الإدارة من العامة.

"منظره مخيف و يثير الرهبة أليس كذلك؟، لكن لا تتسرع في الحكم عليه من مظهره الخارجي فقط، فأندريه شخص هادئ و منطوي، لا تسمع منه الكثير من الكلام، هئ هئ، فنحن نمزح معه أحياناً بالقول له 'إن أعوص قضية قد واجهناها في تاريخ الإدارة هي محاولة القبض على من سرق خزنته من الكلمات'".

أسند الضابط ذقنه على راحة يده و أخذ يلاعبه و يغمزه بإصبعه و كأنه يفكر في لغز عويص قد وضع أمامه، و قال مكملاً مزاحه.

"و لا تقلق أنت أيضاً، فأنا سأجد كلماتك التي يبدوا و كأنها سرقت أيضاً، . . . ، لكنك تبدو مألوفاً لي، و كأنني رأيتك من قبل، من تكون؟، من تكون؟، آه!، عرفتك، سيرغي غروتسكي، أليس هذا أسمك؟، هذا هو بكل تأكيد، فلا يمكن أن أنساه".

أنقبضت عضلات وجه سيرغي، و الصدمة بائنة على وجهه لا يمكن إغفالها، و أقرب وجهه إلى الضابط مسائلاً إياه في إرتباك و حيرة يطفو الحنق على سطحيهما.

"كيف؟، كيف عرفت أسمي؟، من أين أتيت بهذه المعلومة؟، . . . ، آه!، عرفت، بالطبع، كم أكون غبياً أحياناً، هئ هئ، فبالتأكيد ستكون بحوزتك مثل هذه المعلومات البسيطة، فأنتم عناصر الشرطة لا تملكون في مقومات وظيفتكم مفهوم الخصوصية و إحترام حدودها، و الآن ماذا؟، فأنت تعرف إسمي، و بالتأكيد عمري كذلك، و وظيفتي أيضاً، و أين أسكن بلا شك، و كل التفاصيل كبيرة كانت أم صغيرة، فأنتم لا تبالون كيف تخرصون كل تلك المعلومات، و لا تكترثون لسياقاتها التي تنتزعونها منها، كل ما يهمكم هو القوالب الوهمية لعامة الناس التي تصنعونها و تخلقونها من المعلومات و البيانات المتوافرة لديكم، فقل لي أنت إذاً ماذا كنت أفعل أنا البارحة في وسط ذلك المجمع و ما سبب إغشائي أيضاً، هل هذه مهمة صعبة عليك؟، بالتأكيد لا!، فأنت تملك البيانات التي تخصني، و تستطيع تخريص كل التصرفات التي يمكن أن أتخذها في كل موقف يصادفني، فأخبرني، ماذا كنت أفعل أنا بالأمس؟، هيا!، أنطق، ما بالك تنظر إلي بإستغراب و بصموت واجم؟".

أعدل الضابط من ظهره، بينما ظل في تحكم تام في تعابير وجهه، و أخذ يمضغ كلمات سيرغي مطولاً فقط ليبصقها عليه غير طائقاً طعمها الشائب.

"ياللهول!، أعتقد إنك قد تحدثت بقدر يكفينا نحن الأثنين جميعاً، و لكني أكره أن أخيب ظنك و أطير كل ما قد قلته في مهب الريح، فالحقيقة هي إني لم أستحضر أسمك من سجل البيانات المتواجد لدينا، و أنا لا أنكر إن أسمك هو بالتأكيد مدرج في السجل، و لو أنه ليس مرقع بكل المعلومات الوافرة و الدقيقة التي تظنها مدونة لدينا، لكن الحقيقة إني تذكرت إسمك من أحد معارفي، السيد ميرفن، أنت تعرفه بكل تأكيد، رئيس تحرير مجلة 'شباب

اليوم' التي أنت أحد كتابها المستأجرين بالعمولة، فأنا قد صادفتك هناك في مقرهم في أحد الأيام، و أخبرني ميرفن عنك مشيراً إليك من بعيد بكونك كاتب مقتدر و موهوب، و أكد لي حتمية نجاحك و قدرتك لإحتياز مستقبلاً باهر في الكتابة الصحفية معهم، . . . ، لكن ماذا كان كل ذلك الكلام مسبقاً؟، لقد فاجأتني لأخبرك الحقيقة، ليس كلامك الكثير بل عدائك البائن لسلك الشرطة، من أين يأتي هذا يا ترى؟، فأنت لست الأول ولا الأخير الذي يتبنى مثل هذه الآراء المنحرفة عنا، لكنهم على الأقل لا يعلنونها مباشرة في وجوهنا و في عقر دارنا مثل ما فعلت أنت".

أمسك سيرغي بغرة شعره و أخذ يمدها في ندم و حرج من إنطلاقة فمه و فهمه السيئ للموقف، و أرتأى إنهاء الموضوع هذا بأكمله، و أتجه مباشرة لآخر الحديث.

"لقد كنت راجعاً من الحانة و كان ذلك في وقت متأخر، و شعرت بدوار من كثرة الشرب، و أغشى علي، أهذا سبب كافي، أيمكنني الذهاب الآن".

تنهد الضابط في تفهم لحرج سيرغي، و طأطأ رأسه موافقاً على إمكانية رحيله، فنهض سيرغي من على كرسيه بحذر متوكئاً على ساقه، و محاذراً أن يصابه الدوران مرة أخرى، و أنهم يعرج على رجله التي بدت بأنه قد آذاها بالأمس أبان سقوطه، أمسك بمقبض باب الخروج مريداً أن يفتحه، لكن الضابط ناداه من خلفه و هو لا يزال جالساً مكانه مكاتفاً ذراعيه و مسنداً ظهره بكل أريحية، فألتفت سيرغي للوراء.

"لأخبرك الحقيقة، نحن في الوضع المشكك و المسائل هذا لكون قضايا و جرائم سرقة عديدة قد وقعت في الأرجاء، و المجرم طليق لحد الآن، فإن كنت تملك أي معلومة عن ذلك أو لو سمعت شيئاً ما عن هذا الموضوع فلا تبخل علينا بتلك المعلومات، هئ هئ، فنحن نحتاج لكل معلومة أكبيرة كانت أم صغيرة، فلا تنسى بإننا لدينا 'قوالب' كما تعلم لنملئها و نشكلها، أاتفقنا؟".

أحمر وجه سيرغي من الخجل، و أحس بالقهر يغلي في داخله لهذه الأهانة و الأستخفاف من شأنه، و التعابير الشديدة التي بانت على وجهه و إعتفاسها لا يمكن تفسيرها

على أي شيئ آخر سوى الكره و البغضاء، فتح الباب ليواجه أشعة الشمس الصافية، فلا غيوم اليوم، و لا رياح عاتية، فقط ضوء أصفر منعش يصبغ كل شيئ بمسحاته النقية ليخفف من قسوة ألوان الأشياء و دكنها، فرك سيرغي عيناه مواجهاً السماء، و حزم الضوء تتغلغل من بين الفتحات المتشكلة بين أصابعه النحيلة، فبدا و كأنه ينظر من خلف قضبان زنزانة، فأنزل ذراعيه ليحرر بصره، و أخذ يحدق في الأرجاء، لا أحد، ما أمر هذه المدينة؟، أكل مرة يخرج فيها سيرغي إلى مكان ما يختفي الجمع من أمامه، حتى و إن تواجدوا آنذاك فهم يقومون بتجاهله و كأنه مجرد أمرء ينظر من الجانب الآخر إلى أشخاص مرسومين على لوحة لا يدركون فيها بُعدَهم عنه، فأين الناس ليشهدوا خروجه المهين هذا، و أينهم البارحة عندما سقط مغشياً عليه، أين يختبأون و ينطوون بأنفسهم بعيداً عنه، شعر سيرغي بصداع في رأسه فالأمر واضح بأن لهذه الأسئلة ثقل يرزح على هامته و يقوسها حتى الأحدوداب.

دخل سيرغي مبناه، و توجه للطوابق العليا مرتقياً السلالم، و مرة أخرى عند أحد الطوابق رأى أحد أبواب الشقق قد ترك مفتوحاً، فوقف يستطلع في أرجاء الشقة، ألم تكن هذه الشقة قد فضيت من المستأجرين منذ بضعة أشهر، فما هذا الأثاث الكثير الذي يراه يشعل حيزها، و منذ متى قد جلب إليها؟، أدخل سيرغي رأسه داخل الشقة يجوب برأسه يميناً و شمالاً، و فغر فاهه من البذخ في الأثاث الباهض الذي ملئ أرجاءها، و هذه ليست بالشقة الصغيرة كبقية الشقق الأخرى، بل أنها بحجم أربعة منها، و في الحقيقة كما أخبرته صاحبة المبنى بأنها حقاً كانت أربع شقق منفصلة سابقاً لكنها هدمت جدرانها و فتحت المساحة في ما بينها، و كان ذلك قد حدث منذ حوالي أربعين عاماً قد خلت.

أنتفضت فرائض سيرغي و شهق طويلاً بعد أن فاجأه شخص قد وضع يده على كتفه من الخلف، و أستدار سريعاً ليتعرف على من يكون، فواجهه وجهاً بشوش لرجل كبير في السن، ذا وجه مربعي أسمر اللون، ذو فجوات واسعة بين أسنانه الطويلة، تنحى سيرغي جانباً ليسمح للرجل العجوز بالدخول لما قد خمن أن يكون هذا هو المستأجر الجديد و هذه تكون شقته الجديدة، فتقدم العجوز بخطوات قوية لا تعبر عن عمره، و ألتفت تجاه سيرغي الذي

لسبب يجهله وقف مكانه متسمراً عوضاً عن أن يستنح هذه الفرصة في الإنسلال بعيداً و تجنب هذا الموقف الغير محبب، و فتح العجوز فمه لينطق بصوت راجف و كلمات متقلقلة.

"أنت تقيم هنا في إحدى هذه الشقق، أليس كذلك؟، . . . ، هئ هئ، لا تقلق، فليس من المستغرب أن يجذبك الفضول تجاه ما هو مغري و سانح، فالباب كان مفتوحاً، و تشاء الصدفة أن يمر على محياه كائن مثلك يتسم بحس الإستطلاع و الإستكشاف، فأنت لم تتصرف إلا بطابع إنساني إعتيادي، و لا حرج أو مذلة في ذلك، و ها أنا، إنسان أيضاً، أخضع لمقومات الإنسانية بفرضي حق التملك لمساحة تفوق كفايتي، لكن لدي أسبابي التي تدعوني لأن لا أشعر بالحرج من ذلك".

أوغل العجوز مشيه إلى وسط الشقة، و أخذ يلتفت إلى كل أرجاءها و يحدجها بعيناه الكليلتان و المنكمشتان تحت حواجبه الرمادية، و أشار بيده تجاه أحد الجدران الذي أسند عليه مكتبة صغيرة و منخفضة، و تقدم نحوها و رفع إطار صورة كان قد وضعت على سطحها، و قال و عيناه لا تبارحان الصورة.

"أنظر، هذه أول صورة أخذتها لهذا الشقة".

أستغرب سيرغي من هذا الكلام المحير و الذي لا يفهم معناه في ترتيب الأحداث التي يفهمها الآن و في هذه اللحظة، أفلم ينتقل هذا العجوز إلى هنا كما يمكن تخريصه بالمنطق بالأمس، فلماذا كل هذا الشجن و العاطفة عند الحديث عن صورة ألتقطها منذ يوم واحد فقط، دخل سيرغي الشقة و يد الفضول تجره من الأمام، و توجهه ناحية العجوز الذي لم يمانع دخول سيرغي حيث كان واضحاً من كلامه إنه هو من دعاه إلى ذلك، فوقف خلفه ينظر من وراء كتفه إلى الصورة، غرفة فوضوية مملوءة بالحاجات الملقاة في كل أرجاءها، من هندام، و أواني، و كتب، و مجلات، و نافذة تطل على جدار يكاد يلاصقها و يندمج معها، لا يمكن تبين الفترة من اليوم التي تم أخذ هذه الصورة فيه، ظلام كاسح و منخر لسطح كل شيئ لدرجة لا تستطيع تمييز أين تنتهي حدود إحدى الأشياء الملقاة و أين تبدأ

حدود الشيئ الآخر، كل ما يمكن تبينه هو إنها شقة صغيرة لا تطابق حجم الشقة التي هم فيها الآن.

"أهذه هي الشقة ذاتها قبل أن تهدم جدرانها؟، تبدو مختلفة و أكثر قسوة في مظهرها؟".

أجابه العجوز دون أن تفارق عيناه الصورة و كأن ملامحها ستختفي في حال قيامه بذلك.

"نعم، هي هي، أنظر إليها الآن، لا تشبهها في شيئ، فكل شيئ فيها تغير، من جدران، و أرضية، و حتى السقف قاموا بتبديله كون السقف السابق كما قالوا ليس بالسمك و المتانة التي تسمح له بحمل أربع شقق أعلاه إلا بتثبيت دعامات في وسط هذه الشقة، السرير تغير، إطار النافذة قد تغير، آلات الحمام تغيرت هي الأخرى أيضاً، و ماذا بقى؟، لا شيئ بتاتاً، هئ هئ، قد تقول إن الفضاء و الحيز نفسة لم يتغير لكن هذا ليس صحيح أيضاً، ليس و نحن نعلم بتحرك كوكبنا هذا على الدوام و بإستمرار من مكان إلى مكان، و من زمان إلى زمان دون إنقطاع، فأين تختزن عواطفنا و مشاعرنا الجياشة هذه عندما نصادف مثل هذه الوقائع التي يجب أن تكون غير منطقية، فالواقع يقول إنني لم أعش هنا بتاتاً من قبل، و ليست لي صلة بهذا المكان أبداً، لكن هذه الصورة، و مجرد هذه الصورة الجامدة و المغبرة و التي بالكاد تستطيع تبين سماتها تخبرني بشيئ آخر كلياً، كيف نعيش مع هذا التنافر و التضاد الذي لا ينتهي، أليس النسيان ليكون هو الحل الأفضل لهذه المعضلة؟، أليست تلك هي الفضيلة القصوى التي يجب أن نتبناها و نسعى إليها، فلماذا قد تخلصت أنا من كل ما قد ملكت منذ أربعين سنة ما عدا هذه الصورة؟، و ما الذي أحاول أن أفعله هنا بالضبط، فأنا لست حتى متواجداً في هذه الصورة!، فما الذي يضمن أن تكون هذه الذكرى التي بالكاد أستحضرها سليمة و إن هذه ليست سوى صورة قد وضعت بالخطأ في إحدى حقائبي، أنظر!، أنظر إلى هذا الكتاب الملقي هنا، نعم ها هو عند هذا الطرف من الصورة، أتراه؟، 'موسوعة التاريخ الأوروبي' من خط الكاتب التأريخي ميشكين، فأنا أتذكر هذا الكتاب و من أين قد أشتريته، و كم كلفني، و كيف حاججت البائع بإنقاص القليل من ثمنه اللذي

كان باهضاً جداً بالنسبة لي في ذلك الوقت، كان يريده بإثنا عشر درهماً!، أتصدق ذلك؟، هئ هئ، من كان يظنني؟، إبن أحد الأمراء المحظيين مثلاً؟، و أذكر تقليبي لصفحاته الوافرة إثناء خروجي من المتجر، و قراءة السطور الأولى التي تعرف بالكاتب، لطالما أحببت ذلك الشعور بالنشوة من قراءة تلك التعريفات، كأنك بحاراً يانع يتم تعربفك بقبطان السفينة لأول مرة، و أين قد أرتحل من قبل في هذه الأرض التي لم ترى منها سوى القليل، و تتشوق لمعرفة ما سيفضي من خبراته طوال ملازمتك إياه في رحلتكما القادمة، لكن أتعلم ما الغريب؟، هو أني لا أذكر شكل المتجر الذي أشتريته منه، و لا أي صفة من هيئة البائع، حيث لا يتراءى لي سوى كلطخة ألوان مبهمة تنفر عيناك من إطالة النظر في ملامحها، و لا أذكر الشارع الذي كنت أمشي عليه و أنا أتصفح الكتاب، و لكني أتذكر سطح السفينة التي ركبها كوارتز في رحلته إلى المكسيك، و أذكر وجوه القضاة القساوسة الذين حاكموا كوبرينكوس و أرغموه على التراجع عن أكتشافه الجديد، و ما زلت أذكر عيناه المغمضتان اللتان ذرفتا الدموع لهذه المشكلة العويصة التي حلت عليه".

سقطت دمعة من عين العجوز على الزجاج الواقي للصورة، و تبعتها أخرى و أخرى، حتى بدا و كأن الغرفة التي في الصورة يغمرها سيلاً من المياه يجرف كل محتوياتها، و يمحيهم لطخة تتبعها لطخة، و أحتضن الصورة بين ذراعيه ضامنها إلى صدره كأنه يريد إعادتها إلى فؤاده و دفنها فيه، و البكاء مستمر، و الشهيق الهادئ منقطع النظير، و الصورة لا يراها أحد، لا العجوز و لا سيرغي، لكنها كانت ما واصل الإرتسام في صفحة عينيهما، و لم تفارق تقاطيعها المبهمة و الناقصة مخيلتهما التي كانت تحاول إكمال ما نقص منها، و تلوين ما قد سحب من ألوانها، و ملئ أي فراغ قد يكمل الصورة الكبرى منها، و بسخرية واضحة، كان نقصها و عدم القدرة على التمكن منها هو بالذات ما جعلها بهذه الباهاظة من الثمن في إرادة إستجماعها.

فتح سيرغي باب شقته، و دخل مهموماً و مكدوراً، لا يدري من أين يبدأ في جمع لمام الأمور، فما كان العجوز يعانيه هو إزدواجية في ذاته، فالذات الأولى (الروح) تريد شيئاً قد مضى الدهر عليه و لا تقبل بغيره، و الذات الثانية (الجسد) تحاول مطابقة هذه

الرغبة، لكنها تخضع لقوانين صعبة لا تفهمها الذات الأولى تمنع عنها تحقيق تلك الرغبة، فهي تعيش في عالم ذا أبعاد مختلفة عن الذات الثانية، أبعاد تحتوي على جيوب جانبية، تضل بعض الذكريات العشوائية أحياناً عن الطريق و ينتهي الأمر بها أن تكون مخفية فيها بشكل إعتباطي، فلا تعلم إلى أين تنتمي، أو ما هي خطتها الكبرى من إرادة تحقيق بعض الرغبات التي لا تسمن من و لا تغني عن شيئ سوى تحقيقها لذاتها، و الذات الثانية كالبهيمة المصمدة العينين، تجرها تلك الرغبات اللاعقلانية بلا هوادة أو هدف أسمى، فكل ما تسمعه آذانها هو عبارات اللامنطقية بعينها من مثل 'نرغب في طبق من المعكرونة الحمراء من مطعم سكيليونيسكي و لا غير!، حققوا لنا ذلك و إلا'، أو 'نرغب في كتابة رسالة مطولة لخطيبتنا السابقة التي أنفصلنا عنها برضانا نحن الأثنين نحكي فيها عن كرهنا البغيض لها و عدم مسامحتنا لها، على الرغم من سعادتنا في زواجنا الحالي بعيداً عنها'، أو ' نرغب في العودة الى الشقة التي عشنا فيها قبل أربعين عاماً خلت، على الرغم من عدم تذكرنا أي شيئ من تلك الفترة أو من ذلك المكان، و إن غدا الأمر واضحاً إنها لا تشابهها فيا ويلك من العذاب العاطفي الذي سيحل عليك!'، من السهل رؤية إن المنطق و العقلانية ليسا من قوام الذات الأولى، لكن ماذا عن الذات الثانية؟، ما بها؟، لمذا لا تستطيع يوماً الإنتصار على شقيقتها و غريمتها الطاغية و المتسلطة؟، أهو نقص في ملكة الذهن و العقل؟، أم جبن و خوف من ردة فعل الذات الأولى لكونها تملك كل ما يحركه و يصنعه المرء من شأنه؟، أم هو تسلط القوانين الشديدة عليها و إنحباسها في عالم محاصر على عكس شقيقتها التي تخضع لعالم مغاير لا يعرف أوله من آخره، و لا يعرف منه سوى موطئ الرجل الذي تلامس إحدى جوانبه، كفضاء سرمدي ذو سواد معمي، لا تعرف أن تكون خطوتك التالية ملامسة لأرض صلبة، أم منزلقة في هوة لا نهائية.

خلع سيرغي معطفه الطويل الذي أنقض ظهره و ثقل على بدنه و الذي بدا و كأنه قد خزل من حديد صدئ، و ألقاه على كومة الخردوات و الحاجيات الأخرى التي لم يلقي سيرغي أي التفاته ناحيتها، حيث بدت مشابهة و مطابقة لصورة شقة العجوز مما جعله يرتأي عدم التفكر في هذا الموضوع و في هذه اللحظة بالذات من وجهة نظر الذات الثانية،

فهذا الموضوع من إختصاص الذات الأولى لتجد طريقها في الخروج من هذه المتاهة التي هي من تشييدها بالأساس، و ليست الحاجيات الملقاة إلا توابع و نواتج لن تضر أو تأذي أحداً، نخلع سيرغي قميصه الأزرق الداكن و ألقاه على كومة أخرى من الأغراض المبعثرة، و توجه إلى الحمام الضيق المعتم الضوء، و رحبت به رائحة نتنة قد عمت المكان قادمة بالتأكيد من إنسداد إحدى أنابيب الصرف النحاسية، وضع سيرغي يديه على المغسلة، كل يد تمسك جانب، و أخذ يحلق في المرآة المتسخة التي عكست وجه أقبح و أثقل مما هو عليه حقاً، و كأنه كلما رأى إنعكاسه في المرآة قام بزيادة حدة تقطيبه لحواجبه، و أماطة شفته، و إجحاظ عينيه.

"ماذا تحاولين أن تفعلين هنا بالضبط يا ذاتي الأولى؟، لماذا هذه التعابير الشاحبة هي ما يتخذه وجهي دائماً عندما أحاول مخاطبتك؟، ما الذي لا يعجبك؟، فيما قد خالفت أوامرك من قبل و جعلتك بهذه الشدة من الحنق و الغضب لتكون هذه النتيجة هي ما هو عليه أنا الآن؟، هم؟، لماذا لا تردين علي؟، أأنا أطرح الأسئلة الخاطئة؟، أأنت متزاعلة مع شقيقتك و لا تحادثينها؟، أهذا هو السبب؟، . . . ، أو هل يمكن أنكم قد أمضيتم وقتاً طويلاً ملتصقتان ببعضكن البعض لدرجة إنكن لا تستطعن تفرقة الأولى عن الأخرى و لاتعرفن أيكن أخاطب؟، . . .، نعم!، هذا هو السبب!".

أستل سيرغي موسى حلاقة موضوع على المغسلة، و حدق في إنعكاسه في الجانب الآخر من المرآة، و عيونه طافرة تسبح في إحمرار مشع، و العرق يتصبصب على جسده من كل مخرج فيه، و أخذ يلعق شفتيه ليتذوق طعم العرق المالح الذي إنسكب من هامة رأسه، و أقرب الموسى إلى صدره في ما بين الأضلاع و هو يقول متوعداً بنبرة مبتهجة و مجنونة.

"لا تقلقن، فسأصلح بين حالكن!".

(الفصل الثالث)

لا شيئ يجهزك و يمهد السبيل لك في معرفة هندسة جسدك و تضاريسه المنبعجة، فمن منا قد يعبئ بأن يخصص وقتاً ما و في كل يوم لتفحص حالة جسده و بيان قوامه، و ما خواص كلاً من أجزاءه من مثل البشرة، والجلد، و اللحم، و ما طبيعة مكامنهم و بواطنهم، و ما الذي يسري في أديمهم و تحت أسطحهم الغير مستقيمة، فهل لاحظت يوماً كيف تختلف سماكة لحم الفخذ عن لحم الخصر، و كيف تتباين رقاقة جلد ظاهر اليد عن باطنها، و كيف تختلف التعرجات ما بين بشرة الظهر المنبسطة و بشرة الصدر المتعرجة التي تشكلها مصطبات الأضلع.

و ماذا عن الألم؟، و ماذا عن درجاته و تفاوتاته من منطقة لأخرى؟، فنحن نعلم أي من مناطق جسدنا تألمنا أكثر من الأخرى في حال تعرضها لأصابة، فهذا أمر ضروري لا سبيل من الحيود عن طريق معرفته و تعلم أصوله، فمن منا لم يسقط يوماً و يؤذي ركبته و يخدشها، فهذا يؤلمنا بالطبع، لكن عندما نقارنه بألم آخر معضمنا قد أختبره أيضاً، كأصطدام أحد أصابع القدم بإحدى الزوايا الحادة لطاولةً ما فذلك الألم الأول لا يقارن بهذا الألم، و بذلك نقوم نحن بكوننا كائنات تملك غريزة البقاء بترتيب تلك الأصابات و مكانتها في لائحتنا للمناطق التي نحاول بكل قدر تجنب تعريضها لأي أذى، و في حال وجوب تضحيتنا بإصابة أحد المناطق فبإمكاننا عند ذلك الوقت بإختيار المنطقة الأقل ألماً كخيار يضمن عدم تعرضنا للألم الأكبر، لكن ماذا عن أهمية هذه المناطق على مدى الوقت الطويل؟، فقائمتنا السابقة تقول إن في حال وجوب التضحية بإما إصابة إصبع القدم أو الركبة، فعند ذلك يجب علينا إختيار التضحية بالأخرى، لكن أليس التضحية بإصابة الركبة هو مجازفة لعطب الساق كلها من أسفل المنطقة، و بذلك هو إصابة لإصبع القدم؟، فهل ما علينا القيام به هنا هو الإحتكام إلى ملكة العقل و فلسفاته الباطنية و تهيئاته التخيلية و المعقدة؟، ففي ذلك الحال يجب علينا أن نواجه العذاب الأكبر الآني في سبيل تجنب المعاناة العظمى المستديمة، لكن ما هي المعاناة العظمى المستديمة؟، خصوصاً عندما ندع العقل يتحكم بشأنها و ما أن تكون عليه و تجسده، و العقل كما قلنا سابقاً لا نهائي لا يخضع لما يخضع له

الجسد في أي من أموره، و عندما يكون العقل و الجسد مندمجان تمتزج ماهية المعاناة و يختلط ما هو واقعي بما هو تخيلي بشكل أكبر حتى ينتهي بها الحال أحياناً بأن تكون عقلية بحتة و لا تتواجد في العالم المادي، و الأمثلة على ذلك كثيرة و واضحة يكاد يكون من غير المجدي ذكرها إلا على سبيل إزالة أية إشكالية بما نعني، فنحن نعني هنا مثلاً الشخص الذي يتجنب الناس و ينفر منهم ليس إلا لكي يترفع عن المواقف الحرجة، و ينتهي به الأمر بوصف هذه المواقف بالمعاناة العظمى التي يجب عليه تجنبها مهما أقتضى الأمر، و ينتهي به الحال أحياناً في حال تسلط العقل بالإنطواء الكلي و الإنسحاب من أي مجتمع أو ملتقى مهما كانت عوائده و منافعه، و أحياناً يصل الأمر بمثل هؤلاء الأشخاص بالشعور بالحرج حتى من أنفسهم و يخجلون محادثة أنفسهم بأي شيئ، فالأنا العليا لديهم متضخمة و طاغية ذات عيون مراقبة و محاسبة، و لا يختلف معظم ما قلنا من هذه المواصفات على صنف آخر من الناس، ألا و هم المتزهدون المتدينون الذين يجعلون من الخوف من عذاب جسدي و سرمدي أخروي بؤرة حياتهم، و تختلف هذه الحالة في كونها ترتكز على عذاب جسدي فعلي و ليس عقلي، و هو ما يزيد من هذه التوجسات و يفاقم من الخوف حد الجنون، و هو مادي فعلاً، إلا أن ماديته تتجسد في عالم غير مادي، عالم الآخرة، الجنة و النار، أم هل تكون قوانين فيزياء عالمنا المادي هذا تنطبق أيضاً على العالم الآخر، و لكن لو كان هو حقاً كذلك أفلن يكون آنذاك كل طلب من أحد سكان الجنة كإرادة الطيران على سبيل المثال هو كسر لقوانين الطبيعة و فصلها عن القيام بمقتضى أمورها؟، فمفهوم الجنة هو تحقيق كل الطلبات و الرغبات حتى الغير ممكن تحقيقها هنا في عالمنا، و ليس هذا ما نعرف عالمنا المادي هذا به، و ننتقل إلى الدرك الأسفل و نسأل هل ذوبان عظام سكان النار و إعادة ترميمها هو أيضاً كسر لا ينتهي لقوانين المادة؟، فإذا كان الأمر كله كذلك سواء في الجنة أو النار فلا يمكن القول إذاً بإن العالم الآخر يطابق عالمنا هذا في خضوعه لما نخضع له و ما نعيشه كل يوم و نلتزم به كمقتضيات مسلم بها، و بذلك يكون الخوف من العذاب الجسدي الذي سيحل على الناس الذين يترقبون حلول أجسادهم في تلك العوالم هو محصور في نطاق عقلي بحت لا غير، و يجعله في نفس خانة المتوجس من ظله.

العقل متوجس و متلفت لأية صوت يسمعه، و الجسد متأهب للتضحية في سبيل إراحته من ذلك العبء، العقل يرسم متاهة ذات ألف مخرج مسدود، و الجسد كالأحمق الذي هو عليه يظن كل الطرق تجتمع نهاياتها لمخرج واحد، فلا يهتم في أي طريق يأخذه به العقل دون هوادة، و العقل ملك لبلد لا حصن له، و الجسد الجندي الذي يحرس بوابة القلعة بدرعه المصنوع من القصدير المنبعج، فما علاقة العقل و الجسد إلا علاقة تحتمت منذ بداياتها بالدمار، و الضياع، و التشتت، و العقل مجرد طفل صغير لم يقل له أحداً في يوم كلمة لا و إلا كانت العواقب وخيمة، فمصيبة إن أطعت و مصيبة أكبر إن لم تطع.

و نعود لسيرغي الذي نظر محملقاً بعيون ملتهبة كجمرة تشع في غياهب ظلمات الفيافي، و بؤبؤاه يحدقان في إنعكاسه على المرآة، ينظران بالخصوص إلى يده اليمنى - اليسرى في الإنعكاس - المرتجفة، و التي مسكت بين أصابعها موسى الحلاقة الصدئ، و القريب حد الملامسة لصدره حيث كان موجهاً شفرة الموسى إلى ما بين أضلاعه، أقرب سيرغي وجهه إلى المرآة مريداً بذلك رؤية كل شيئ تخطه يداه بدقة لا تسمح بذلك بأي خطئ، فتح فاهه واسعاً متأهباً لملامسة الحديد الصدئ البارد لبشرته العارية و الرقيقة، و وجفات قلبه تتصاعد كخبطات أحصنة هوجاء، أهذا هو ما يشعر به الراهب العرفاني في تأملاته الباطنية؟، أيشعر أيضاً بالضياع و التيهان، و بالصراع المرير و الغير مجدي، هل التفسخ و التفكك خطوة ضرورية للمعرفة التامة، لكن أي معرفة تامة هذه التي نتحدث عنها هنا؟، فإن أردت على سبيل المثال أن تعرف مما تتكون منه طاولة و ماهيتها، فعليك أن تفكك أرجلها و تقيس أطوالهم و تقيس سطحها و تنظر عن كثب لما هم مصنوعين منه كلاً من الأرجل و السطح، و كيف تم قصهم و بأي أداة، و من ثم عليك أن تتعمق في التفكيك حتى القيام بكسر الأرجل لتتمكن من النظر إلى بواطنهم و ما قوامهم و ما هي قوة تحملهم، و المزيد من الإختبارات التي لا تنتهي و التعمق الذي لا ينقضي، لكن أهذه حقاً هي المعرفة التامة؟، لكن معرفة ماذا بالتحديد؟، ليس الطاولة طبعاً!، فأي شخص يدخل عليك فجأة و أنت تكسر و تجز في تلك الخشبات لن يتعرف على أن ما بين يديك هو طاولة في الأصل، و لن يصدق إن حاولت إقناعه بكونها بذلك و هي بتلك الحال، إلا أن قلت له إنها مجرد أجزاء

من الطاولة، فإذاً المعرفة التامة هي النظر إلى الطاولة على ما هي عليه دون تعديل، و أي نقص قد يحل بها ينقض كونها ما هي عليه، فأليس هذا هو الصواب؟».

أبعد سيرغي يده من قرب صدره، و تقاطعت أنفاسه، و بدأ لهاثه يتزايد في حدة، فجة الجسد كانت تملك ثقلاً لم يلاحظه من قبل، بل أنه تفاجأ بصوته الذي لم يسمعه من قبل بهذا الإعتدال و التوازن، فيبدوا إن هذا الموقف الذي يحدث بين يدينا قد أعطاه جرعة من الشجاعة في هذه المعركة ما بين الكلية و التجزء، لكن ما الجسد بدون العقل، و ما العقل بدون الوعاء، و هذا هو الفرق البين هنا، فالجسد لا شيئ، و لم يكن شيئاً قط، إلا بتواجد جهاز يحركه و يوجهه، و هو لا يملك حيلة لنفسه، فكم من شبان يافعين و في عز قواهم الجسدية ينتهي بهم الحال منقلبين على وجوههم على أسرتهم لا يبارحونها أثر كدر لا يستقصى أصله، و كم من شيخ كهل في أراذل عمره و أحط قدراته الجسدية و لكنك لا ترى آسته تلامس أي سطح من كثرة تجواله و وقوفه الشامخ، و أما العقل فهو الروح التي لا تبلي و لا تنقضي، أبدية سرمدية من أصل مياه هيولية لا تنضب، و ما وعاؤها إلا مجاز يستعمل ليقدر به الجسد أن يفهم و يستوعب بقدراته المحدودة ما هي بالنسبة إليه هو فقط و ليس ما هي عليه حقاً، فكيف يمكن أن نصدق أن تكون الروح محبوسة في الجسد و في نفس الوقت أن تستطيع التأثر و التواصل بما يقع خارج الجسد قبل أن يتعرف عليه هو إلا بأن تكون هي أيضاً خارجه و تقوم بتقريب العالم و توضيحه في صورة أبسط ليستطيع إختزانها على مهل و بتروي، فالعقل مغاير للجسد، لا يحتاجه، و لا يسايره إلا في ما يتفق معه في أمره.

سال الدم و تدفق يتبع مجرى مسير الموسى من أعلى الصدر عند الترقوة و الذي أخذ يطفو بخفة بالكاد تلامس البشرة إلى أن توقف عند الحجاب الحاجز، أرتعشت فرائض سيرغي عندما أزاح الموسى من على صدره، و أخذ يحدق و يحلق في إنعكاسه الدامي على المرآة، و الدم يتدفق بلا توقف على خفة و وتيرة لا تتغير، دم ساخن لا تحس إلا بحركته عند تدفقه من مخارجه، ينسكب و ينسكب مع كل إنقباضه في أي عضلة من عضلات سيرغي، فأخذ يقاوم الحركة و يقاوم التنفس المرتجف و يحاول ضبطه، عيناه تدوران في محجريهما

تكادا أن تنقلبا للخلف، حتى تراءى أمامه فجأة مخطط تحرير الروح من زنزانة الجسد، كوحي إلهي يستعطف بحاله و يحاول توجيهه نحو الطريق المراد وصوله، خطوط دقيقة و مشعة كأنها قد أستلت من خصلات شعر ملائكةٍ نورية قد أرتسمت على جميع أنحاء بدنه، لا سبيل للعودة، فما الشق الأول إلا توقيع سيرغي على عقد إخلاصه للرغبة الروحانية الإنسانية في تخليص نفسه، شقاً يتبعه شقاً آخر، كلاً يحل عقدة من عقد رباط المادة الجسدية، و يسقط الجلد البالي العديم الفائدة على أرضية الحمام، قطعات من اللحم و شطف من تكتلات الدماء قد تكدست بعضها فوق بعض على بركة من الدماء الحمراء الداكنة التي بدأت بالتمدد في حجمها و التوسع في مساحتها، و عيون سيرغي لا تبالي بأي من هذا حيث إنها لم تبارح التحديق في الصورة المنعكسة، مترقبة بزوغ الروح خارج الجسد و إنفصالها عنه في أي وقت، فمن أين يا ترى سيكون مخرجها؟، أهو الصدر؟، حيث القلب الخافق، أفليس خفقانه ليس إلا ضربات يد الروح على جدرانه المجوفة حيث تصارع الحبس الظالم و ترغب التحرر منه؟، أم هو الدماغ؟، حيث الحواس تتمركز، و كأن الطبيعة قد طورت كل حواسنا من عين، و أذن، و فم، و أنف، و وضعتها كلها بالقرب من الدماغ حيث الروح تسكن، لكونها الأحق لما تملكه من فطنة و حذق بهذه الإمتيازات، فما هذه الحواس إلا محاولة الطبيعة مراضاة الروح بهذه الهدايا القصيرة المدى و ضيقة القدرة و التي لا تضاهي ما هي بالحقيقة قادرة عليه في حال تحررها، أم . . . هل الروح الكاملة و الحرة ما هي إلا نتاج العذاب الأكبر و الأشد؟، أهذا هو؟، أهذا هو الطريق للحرية حقاً؟، و لما لا يكون كذلك؟، فما أقصى حد متطلب لبلوغ الحرية إذا لم يكن المرور بأشد ما أختبرته في حياتك و تخطيته كقطعة واحدة، أو قل قطعتين في هذه الحالة، لزمت هذه الفكرة ذهن سيرغي و رفضت المغادرة أو التبعثر، مما ثبت له صحتها، لكون تشتت الأفكار واحدة تلو الأخرى و تتابعهم و تضادهم لبعض هو عنوان هذه الأمسية، فأليس هذا إلا الختام إذاً؟، أليس إلا هذا هو النتاج الأخير التي يخرصه بطل قصص التحريات بعد بذل مجهود عظيم في تفنيد كل الإحتمالات الأخرى، و ينسى كل ما فكره سابقاً و يلقيه جانباً، و يبقى الإستنتاج الأخير هو الجوهر الأساسي للقصة كلها حيث يعاد النظر إلى كل الأحداث التي جرت من منظور

هذه الفكرة فقط، فما غير معاناة الألم الأكبر إذاً يمكن أن تكون الدلالة المستمرة و المبشرة لكل الأحداث التي مرت بسيرغي طوال حياته و إلى الآن، و ما كان كل ذلك الألم البسيط و المتفرق إلا دفعات يد خفيفة بالكاد تشعر بإنطباعة راحتها على ظهرك، و ما المعاناة العظمى إلا الدفعة الأخيرة التي سترجف سيرغي حتى النخاع، و تحرره من كل شيئ فعلاً!.

أعاد سيرغي إحكام أصابعه على الموسى و شرع في تنفيذ مشيئة الروح، لا صرخات تنتج من ملامسة سن الحديد على سطح اللحم المكشوف نتاج تخدر الجسد من إفرازاته لكل الكيميائيات المسكنة التي بدأت تتدافع و تتهادى جنب بعضها البعض تمسد مواضع الألم، فهذه هي محاولة الجسد الأخيرة لإحالة حدوث الإنفصال، كل ما يجب عليه فعله هو تجاهل الألم و تطبيبه بكل ما يستطيع من قدرة مادية تتواجد في مكوناته، و الروح وحدها تصرخ "إن كانت الشقوق لا تكفي و لا تُحس، فإطعن!، و إطعن بكل ما أستطعت حتى تحس بما لا يمكن الأحساس به، فهذه هي النشوة الأخيرة و القاطعة"، فقطع و قطع حتى تشنجت حركاته في مكانها و تصلبت يداه، و سقط الموسى غير مصدراً أي صوت حيث غاص في بركة من الدماء الغليظة و في قطعات و جذاذات من اللحم الساخن، و يتبوء كل هذا كائن لا يمكن تسميته بسيرغي بعد الآن جالساً بتهدرك و مسنداً ظهره على ساق المغسلة، مجرد قطعة لحم دامية من أعلاها إلى أخمصها، لكن أين هي؟، أين هي الروح في خضم هذا كله؟، أما زالت في الداخل تعترك مع ما تبقى من الجسد الميت، أم أهي طليقة و حرة لا يمكن الإحساس بها من هذا المنظور المحدود، لكن كيف سنتعرف عليها الآن و هي لا يمكن تحسسها؟، أليس الهدف من هذا كله هو تفحصها و مسائلتها عن ما تريده من هذا العالم المادي؟، فكيف ستجيب عن هذه الأسئلة و جسد سيرغي هو الآن أصبح بدوره هو الذي لا يستجيب لأوامرها و لا يطيعها، هل الأمر كله ما هو إلا عكاس للآية، الا يمكن تعاطي العالم من جهة أخرى تخالف سياق الآمر و المطيع؟، هل التفاهم مستحيل إطلاقاً طالما بقي الجسد على نموه المعطوب هذا، و بقاء الروح على هذا الصلف و الاعقلانية الطفولية، فألا حل في الإندماج، و لا حل في الإنفصال؟، فالعالم ما هو إلا مرحلة مؤقتة

غير مرغوب بها، و لم تُطلب يوماً من قبل أحد، فلا الروح و لا الجسد يرغبان ببعضهما البعض، و لا يطيقان بعض، كلاً يعتمد على الآخر فيما يريد، و يكون الجسد هو الرابح الأكبر من التلاصق، و هو الخاسر الأكبر من الإنفصال.

تتابعت ثلاث طرقات على الباب تبعها صوت صرير مفصل الباب و صوت غلقه، و ثم صدحت أصوات وقع حذاء في أرجاء الشقة، وقف جانيا عند مدخل الحمام المعدوم الباب، و أسند جانب يده على إطار المدخل و قدماه منفرجتان تتجنبان موطئ بركة الدم التي سالت حتى خارج الحمام، خلع جانيا قبعته و غامر بإدخال رأسه إلى مسرح الجريمة يتفحص المكان مجيلاً عينيه على سائر لطخات الدماء و نتفات اللحم و الجلد، حتى أنتهى به الحال إلى النظر إلى الكائن الأحمر و المشوه الذي بدأ بالتهدرج و الإنزلاق من حيث أستند، لا يمكن تعريفه بأي شيئ، فلا شعر يتواجد على رأسه، حيث كانت فروته تطفو جانباً على سطح بركة الدماء، و لا ملامح على وجهه، فقالب وجهه قد أختبئ فيما بين أحد كومات الجلد الملقية في الأرجاء، لا شيئ!، لا شيئ إطلاقاً يمكن تعرف هذا الكائن به على أنه كان يوماً ما يدعى بسيرغي، تفكيك لا يمكن إعادة جمعه و تقويمه، فلا سبيل الآن إلا إلى التحلل و التعفن و الذوبان فيما بين مكونات العالم المادي، أستدار جانيا ملقياً نظرات حائرة على أرجاء الشقة، و كأنه يأمل بروز سيرغي في أي لحظة من تحت غطاء فراشه المكرمش و يهم بفرك النوم من عينيه، أو يدخل باب الشقة و علامات المعاتبة على وجهه غضباً من دخول جانيا عنوة في شقته من دون تواجده فيها ليستقبله، و ألقاؤه جملته المعتادة كلما حصل ذلك "أتريد أن تكون السبب بإصابتي بسكتة قلبية!، ظننتك سارقاً ما يترصد قدومي لقتلي في غضب بعد عدم حصوله على أي شيئ قيم في شقتي"، طال الترقب، لكن لا حركة و لا حس غير أصوات الجيران و أصوات السيارات التي بدأ صوتها يعلو مع إقتراب الساعة الثامنة صباحاً حيث يغادر معظم الناس شققهم ليتوجهوا لأعمالهم اليومية و يقضوا مشاربعهم، و حتى جانيا نفسه كان في طريقه للتوجه إلى عمله في مكاتب الأطباء الباطنيين حيث قد تم تعيينه هناك مؤخراً بزمالة مؤقتة بدون راتب حتى يكتسب الخبرة، هذا قبل أن يقرر أن يتوقف هنا و أن يتطمن على سيرغي بعد محادثتهم الشائكة ليلة أمس

و المثيرة للقلق، و لكن ماذا عن سيرغي؟، ما الذي كان يجب عليه القيام به اليوم؟، كتابة المزيد من تلك المقالات السخيفة و المعدومة الذوق؟، أم محاولته كتابة روايته التي كان يعمل عليها منذ سنين دون طائل في إنهائها أو الأتيان بأي نتيجة مشجعة؟، أم هل هذا المنظر الذي أمامنا هو ما تحتم عليه أن يقوم به، و بالتحديد اليوم من دون أي يوماً آخر؟، أهذا هو العمل الأكبر الذي يقضي في سبيله المرء جل حياته يطور فيه إهتماماته و يعدل من شخصيته و يباين في ما بينها و بين ما يراه من صفات تتواجد عند الغير، أليست الخاتمة هي النتيجة؟، إن لم تكن، فماذا يمكن أن يكون بعد هذا؟، هل هناك مزيد من التقنين في الإهتمامات، و مزيد من تحديد ما تحب و ما لا تحب، أم هل الأمور قد ثبتت على آخر ما قد تراءى أمامك عند لفظك لأنفاسك الأخيرة، و هذا السؤال لا يوجه إلا إلى من يعتقد بتحرر الروح، فهل سيرغي في هذه الأثناء و هذا إن نجح في إطلاق العنان لروحه في توقف سرمدي عن التفكر، و التدبر، و التبطن؟، و إلا ما فائدة هذا التحرير إن ظل التنافر و التعارض لا يزال متواجداً في الروح لا يبارحها، فما التفكر، و التبطن، و التدبر، إلا نتاج كل ذلك التنافر و التضاد!، فنعم، كما الجسد قد تحنط و غدا كالتمثال المتصلب، فالروح كذلك تماثل الجسد بعد الإنفصال، ساكنة لا تتحرك، لا تملك حيلة لنفسها، بل إنها لا تدرك حتى ما هي ذاتها!، فالذات تكون واحدة في إندماج الروح و الجسد، كما الطاولة لا تكون طاولة إلا بإتصال سطحها مع أرجلها، إن أنفصل إحداهما ذهب مفهوم ما يشكل ماهيتها في مهب الريح، و غدت مجرد خرداوات بالإمكان الإستغناء عنها.

كان العجوز جالساً على كرسيه الموضوع قبال إحدى النوافذ العديدة في شقته الواسعة، يداه متصالحتان على حضنه، و ضوء الأصيل يحتضنه و يغمره بالدفئ المنهمر و المحابي لكل ما هو حي، و المفعم بالإنشراح و السكون المدرك لكل شيئ يحدث مما حوله، جفنيه مغلقين و منطويين تحت رطل حواجبه الكثة و الغليظة، صوت حنين السيارات بالكاد يسمع إلا كطنين ذبذبات خفيفة من هذا العلو الشاهق، و لا يتسامع في الأرجاء إلا صرخات الأطفال و هم يتراكضون في ممرات المبنى و يتضاحكون في ما بينهم مالئين ساكني كل شقة بعبق الطفولة و الذكريات التي نظن نحن إنها لا تنسى، و كيف ننساها و

هي بهذه المعزة و المكانة التي لا يمكن أن نضحي بمكانتها لدينا في أفئدتنا الضيقة؟، فنحن أيضاً قد لعبنا مثلهم، و تراكضنا جنب بعضنا البعض، و ضحكنا بأصواتنا العالية، و الآن نراهم يقومون بالمثل تماماً أمام أعينا، فهل هم أنفسهم الأطفال يدركون إن هذه المرحلة و التي هم يقضونها بكل أريحية، وعدم إهتمام أو تفكر أو تمعن، مقدار ما تمثله و تشكله في ذكريات كل إنسان بالغ و كم هي تعني لنا؟، أم إن كونهم لا يبالون بأي من ذلك هو الجوهر الأساسي لكل ما نحُن و نشتاق إليه عند وقت الإنهمام و الكدر المنقضي في سبيل تدبر الحياة و معانيها؟، و هذا هو التناقض مرة أخرى يطل بكيانه المنقلب رأساً على عقب، يحاول بجد مضني أن تلامس رجلاه المعاكستان أرضاً لا تأهل بأمثاله و لا تتناسب مع قوامه الغريب عنها، فالكهل يريد الطفولة، و الطفولة ترغب بالبلوغ، و البالغ يتطلع لأن يبقى كما هو لا يتغير، حتى ينتهي به الأمر بالكهول، و تستمر الدورة لا تنتهي و لا تكل بدورانها المثير للغثيان لأصحاب القلوب الضعيفة و الواجفة، يرغبون في الخروج من دواليبها المتغيرة بأي وسيلة ممكنة و بأي حيلة، فأنت تعلو فقط لتسقط، و تجلس فقط لتحبو، و تقوم فقط لتتدافع بين الجموع التي لا تسمح لك بالوقوف حيث تريد، كلاً يريد الموطئ الأفضل لقدميه، فيجرون و تجري معهم إلى حد تشنج العضلات في رجليك، و التعب يسري في ذراعيك، و اللغب يعبث في نواحي بدنك، و تنسى في خضم ذلك في أي مرحلة أنت من هذه الدورة التي لا تتوقف و التي لا يسمح لك بإمداد رأسك خارجها لإستطلاع قوامها و معرفة أين أنت منها، و أي منحنى تدور به هذه العجلة العملاقة، لا نهائية، سرمدية، غير مبالية بأي شيئ، لا تُبلي لأي أحد أي إعتبار، بل هي لا تدرك حتى تواجدهم و تشقلبهم في أجوافها إلا كسرب من الطفيليات التي تنهرس تحت عجلتها.